**شعر**

قصائد من مجموعة "ضجر البواخر" (منشوارت المتوسط، ميلانو، إيطاليا، 2016) لصلاح باديس.

**ريّاس البحر**

يهيمُ القراصنة منذ ثلاثة قرون

في مدينة الجزائر،

تراهم بأذرع موشومة

وجلودٍ أحرقتها الشمس،

يقفون عند الشاطئ

يبلّلون أقدامهم

فلا تنمو لهم جذور في البر.

سُلبوا سيوفهم وحُطّمت سُفنهم،

جعلوا من قصورهم متاحفَ يسكنها الريح،

ووُزّعتْ مدافعهم

على ساحات بلدات فرنسية ضجرة.

نسي النّاس أسماءهم،

مُنعوا من ركوب البحر

وتفرّقوا على الميناء والشواطئ

حمّالين ومضاربين وشحاذين،

يرقصون في الأعراس الشعبية

ويبيتون في العراء.

سلالة ملعونة لا تموت ولا تتكاثر.

**الهروب**

ليسوا غرقى البحر وحدهم
من يتمنّون الوصول إلى الشاطئ.

نحن أيضاً في مدينة الجزائر
نُغالبُ أمواج البشر والمركبات،
نبحثُ عن مساحات الظل،
نصرف نقودنا على زجاجات المياه،
نُقطّرُ أعمارنا على الإسفلت،
نبحث عن مكان لركن السيارة،
تتقيأ مذيعات الراديو في آذاننا
وتتفتّتُ رُكبنا من السياقة.

نقضي نهاراتنا في الحلم بالشاطئ،
بشاطئ نرمي فيه التعب
الذي تراكم داخل جفوننا وجيوبنا
وأحذيتنا وعلى جباهنا.
نحلمُ بالهروبُ من حرّ الإسفلت
إلى برودة الماء،
كحيتان تفشل كل مرّة في الانتحار.

**صيفٌ كل المخاطر**

"الصيف متعة في الجزائر"

كنّا نقول.

نسمة الصباحات الهادئة

السيّارات القليلة على الطريق،

تحضير السندويتشات والماء البارد

الهروب إلى الشاطئ

قبل أن تلتَهِبَ عينُ الشمس

والسباحة حتى منتصف النهار.

الشمس برتقالة من نار

تعصرها يدٌ خفية طول النهار

على ظهورنا،

الصيف صار يتمطّط

لأكثر من ثلاثة أشهر،

فُندق الأوراسي الذي نسمّيه

"مكيّف هواء المدينة"

لم يعُد أكبر معلمٍ فيها

ولم يجعل صيفنا أقل حرارة،

تضاريس المدينة تتغيّر...

وأنتِ لم ترجعي بعد.

تقضين صيفكِ في مكان بعيد

ليس به بحر.

مازلنا مبهورين بالبحر

نُمضي أيامنا في مراقبته

من على سطوح البيوت

كأنّنا نملك الأبدية...

كأنّ لا شيء يحدث هنا.

**أعلى رجلٍ في المدينة**

أنتِ لم ترجعي من غُربتكِ

والمئذنة التي تُبنى على الكورنيش

منذ عامين، لم ينتهوا منها بعد.

يقولون أنّها ستكون أعلى مئذنة في العالم،

لا أعلمُ إذا ما كان الأمر صحيحاً،

لكنّي أعرف

أنّ أعلى رجلٍ في المدينة اليوم

هو سائق الرّافعة التي تبني هذه المئذنة،

يُشرفُ على كل شيء من موقعه،

حتى أنّه يستطيع التّلويح

للسُفن الضجرة في ميناء مارسيليا

شمال المتوسط.

لا أعلم متى سيُفتح الجامع،

ولا متى سيكون موعد عودتكِ،

لكن النّاس هنا

تشكّ في أنّها ستسمعُ صوت المؤذن

لمّا يصعد ليدعوهم للصلاة.

**وَحْشْ**

يتغيّر إيقاع يومي
أضبطُ ساعتي البيولوجية
على مواقيتكِ.
وعندما تنشغلين
أفترشُ المساحة الواسعة
لفرق التوقيت
وأنام.

قارةٌ ومُحيط بيننا
وكُتبٌ ونميمة،
وحُب يقتاتُ على قوّة الإرسال
(الذي يروح ويرجع)
ويعيش بقدر ما تعيش
بطاريات هواتفنا.
وعندما تنطفئ التكنولوجيا
يُسلّمُ لحمنا للوَحشِ،
الذي تسمينه شوقاً.

رُزمة الكتب التي أرسلتِها
لم تصِل،
يقول موظف البريد
إنّها تقبعُ في جوف باخرة ما
من تلك التي ترسو في عرض البحر.

الباخرة لم تدخل الميناء

ونحن لم نعد قراصنة

حتى نذهب ونسترجعها.

**سرد**

نص كتبه صلاح باديس لمجلة The Outpost حول معنى "الوطن"، صدر النص في النسخة العربية والإنجليزية من المجلة، العدد السابع، 2016، بيروت.

**أين لا تَحدُثُ الأشياء**

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هَجّرَ المُستعمر الفرنسي في الجزائر عشرات القبائل ومئات العائلات، مُحطماً بذلك عُروشاً كاملة سواء لإضعافها بعد ثورات شعبية صغيرة أو لأخذ أراضيها. يُحكى أن جدّ جدي وشقيقُه قتلا رجلاً، بسبب مسألة نقود رفض أن يُعيدها، كان يعمل مع الفرنسيين يومها، ووسط تلك الفوضى حملوا نسائهم واتجهوا شرقاً... إلى تونس. حيث أقاموا في بلدة زراعية صغيرة تقع في منتصف المسافة بين العاصمة تونس ومدينة بنزرت الساحلية، مكانٌ هادئ، خارج الزمن، لا يكادُ يحدثُ فيه شيء. استأجروا أراضٍ زراعية صغيرة ليعيشوا منها، وبقوا هناك مُدّة عيشِ ثلاثة أجيال.

تُعتبر كلمة "ثامورت" عند الأمازيغ كلمة مقدسة، فهي تعني "الأرض"، ليست الأرض الخصبة والمنتجة فقط، بل كل تضاريس المكان الذي ينتمي إليه الإنسان ويحمِلُ اسمه حتى وإن لم يملك عقوداً وأوراقاً إدارية،الأرض تحمل إسم صاحبها الأول، ومن بعدِه يعيش نسلهُ حاملين اسمه وأرضه. حتى الحجر في المناطق الجبلية الوعرة الذي إنتُزع من مكانه لبناء مساكِن مُعلّقة على مئات الكيلومترات من مستوى البحر، حتى هذا الحجر الذي لا يُفلَحُ ولا يُباع ولا يُشترى يُسمى ثامورت. العلاقة بين شعوب شمال إفريقيا وأرضها علاقة حنين منذ البداية ليس بسبب المكان فقط بل أيضاً بسبب الزمن، هذه الشعوب تحنّ للأرض حتى وإن لم تخرج منها طيلة حياتها، حتى وإن لم تُنتزَعْ منها، هي تحن لِقِدمِ وجود الأرض.

جيل والدي، المولود بتونس، بين نهاية الثلاثينيات ونهاية الأربعينيات هو من بدأ في العودة إلى الأرض منذ منتصف الخمسينيات، عادوا ليُجنّدوا في الثورة التي انطلقت في نوفمبر 1954، أو كوالدي الذي عاد وحيداً قبل الاستقلال (1962) بشهور، طالبٌ ثانوية لم يبلغ بعد السابعة عشر من عمره. بعد أن عاشوا ما يقارب القرن في تونس، هم اللذين لا يعرفون للجزائر شكلاً أو رائحة عادوا لأن شيئاً ما كان يحدُث في هذا "الوطن المُحتمل" وعليهم أن يلحقوا به، بل أن يصيروا جزئاً منه. الحدث والأرض التي يدور فوقها وتدور هي به، هكذا كانت فكرة الوطن. الدولة التي ستقوم، الجمهورية التي ستنشأ ثم تخلفها ثانية وثالثة وقد تَمّحي حتى... كل هذا لم يكُن مهماً. عاشوا في تونس غرباء، ينادَون بلقب "الغربي"، لقدومهم من جهة الغرب، بدَل أسمائهم الحقيقية. وهذا يُذكّرني بأحد الأصول المُحتملة لكلمة "غُربة"، وهي كلمةٌ مهمّة في الحياة اليومية لشعوب شمال إفريقيا منذ قرون، حيثُ يقال أن الكلمة جاءت من "تضييع الإنسان لجهة الغرب" عند مسيره، ويبدو أن الغرب هذا كان عبارةً عن نجمة في السماء يستهدي بها النّاس عند تنقلهم، وبفقدانها يضيعون. لكن الحال مع عائلتي كان تضييع الأرض التي في جهة الغرب، وليس مُجرّد نجمةٍ في السماء.

لكن أيضاً ليس هنالك أمرٌ صاغ فكرة الجزائر كوطن بقدر "الغربة"، أو كما يُقال "المنفى (الغربة أيضاً منفى) هو مشتلة المشاعر الوطنية". الغربة بكونها ضِداً لكل ما قد يحمله الوطن من معنى، والوطن الذي لم يُكُن وقتها مُعرّفاً بحدود غير تلك التي رسمتها فرنسا لمستعمرتها، والذي لم يكُن سكانه الأصليون يتعرفون على بعضهم البعض ولا يشتركون في صفة إلاّ كونهم "أهالي" كما تسميهم الإدارة الفرنسية، وهي تسميةٌ تقترب

من تسميةِ "السكان الأصليين"، أو اللذين كانوا يسكنون الأرض لما دخلناها سنة 1830. من هنا صار الوطن عند الجزائريين، المغتربين في داخل والخارج، هو كل ما لا نملكه ويملِكُه المستعمر.

ومن هذا المُنطَلَقْ صار من السّهل على والدي، المُراهق وقتها، أن يعرِف ما هو الوطن، وأين يُمكن له أن ينصهر، مع ملايين البشر، في رِفقةً أفقية وعميقة، ليشكلوا جماعةً تخييلية... أو ما يُعرف بالأمّة. تتَسِع مساحة الوطن كلّما التحَم في هذه الجماعة وسردياتها، وتتقلّص كلما نأى بنفسه مبتعداً عن التاريخ والجماعات... ينتقل من الماكرو إلى الميكرو، لعدّة أسباب منها اكتشافه لزيف التاريخ، لأنه صار أنضج قليلاً ولم تعُد الجموع تعني لك شيئاً بل وصار لا يثق بها، ويلجِم حماسه كلّما رآها تتجمهر حول حدث ما. خاصة في سنوات الحرب الأهلية في التسعينيات، صار حنينه إلى طفولته التونسية كبيراً، بينما تعب من حال الجزائر.

أنا وعيتُ على والدي في هذه الفترة،حماسي للجموع لم يتعدى بضع مرات في المراهقة قبل أن يبهُت. لا أريد التورّط فيما يُنتجه خيال الآخرين، يكفيني خيالي وخرائبه. اكتشاف أن الجموع تَعتبرُ أنّ الوطن هو "أين تحدث الأشياء" كان كافياً للسَير في غير طريقها، حتى والدي لمّا دخل الجزائر برّا كان في خاطره هدفٌ واحد: الوصول إلى العاصمة، *أين تحدُث الأشياء*. تماماً كما فعل هواري بومدين يوم دخل من الحدود الشرقية للبلاد وانقلب على الحكومة المؤقتة في صيف 1962 ليُنصِّبَ أحمد بن بلّة رئيساً. حتى النّاس اللذين يسكنون الشمال، ملتصقين بالشريط الساحلي، يعرِفون أن الوطن هو "أين تحدثُ الأشياء". أتذكرُ أيضاً العبارة -التي نبّهني لها أستاذي في أول سنة لك في الجامعة- التي لطالما تكرّرتْ في النشرة الجوّية بعد أن تفرغ المذيعة من عرض درجات الحرارة في مدن الشمال الكبرى، وتقول (مُشيرةً إلى الصحراء التي تتربع على أكثر من أربعة أخماس البلاد، والتي لا يحدث فوق رملها شيء بالنسبة لملايين البشر): جوّ مُشمس وصحو في بقيّة أرجاء الوطن.

في عُمق هذه الصحراء ، على صخور جبال التاسيلي الشهيرة هنالك رسومٌ تعود لأكثر من عشرة آلاف عام، رسوم مذهلة على الحجر تُصوّر صيادين وحيوانات ترعى وتشرب... نعم، عُشب وماء وسط الصحراء. كان ذلك منذ آلاف السنين، وكان الشمال مجهولاً، لا وجود له في مِخيال الجماعة المستوطنة في الجنوب. كل الأشياء وقتها كانت تحدُث في الصحراء (بقايا أرجاء الوطن اليوم) التي كانت يومها وطناً للصيّاد والراعي والرسّام. الوقوف اليوم أمام الرسومات القديمة يحُلُّ عُقداً كثيرة ويُجيب على بعض الأسئلة، كالتسليم بأنّ فكرة الوطن، فكرةٌ تُصنع داخل مجالٍ زمني وتدوم فترات مُعيّنة، لذلك تنشأ أوطان من العدم وترجعُ أخرى إليه، مسيرة الجماعات والأفراد خلال حقبة زمنية مُعيّنة هي ما تصنع الفكرة، الزمن هو الذي يُديم فكرة الوطن سواء بترسيخها أو بالحنين إليها بعد أن يعلوها الغُبار، لذلك غالباً ما ينحصر الوطن بين "ما يجب أن يكون عليه" و"ما كان عليه".أمّا المكان فهو صدفة تختارها الطبيعة والتاريخ لجماعة معيّنة، المكان يُتركُ أيضاً لدورة "حُدوث الأشياء وانحسارها"، يصيرُ وطناً عندما تحدُث الأشياء، وغُربة عندما لا تُحدث.

***